# الفصل 02

# تحذيرات سابقة لهجمات الحادي عشر من سبتمبر

**«... مثل الخارجين عن القانون الذين ينتظرون القطار... ».**

**جي كلارك، كاتب أمريكي.**

كنت أسيرةً في ذلك القفص، وكانت الحقيقة محبوسةً معي.

لم يكن العراق وحده الذي أخافهم؛ فقد سبق لفريقنا أن حذَّر في صيف عام 2001م من هجوم محتمل يشبه هجمات الحادي عشر من سبتمبر، وكنت أنا من نقل الرسالة، وهذا ما أخافهم كثيرًا.

عُدت بذاكرتي إلى شهر أغسطس من عام 2001م، وإلى الأيام الحاسمة قبل هجمات الحادي عشر من سبتمبر، في ذلك اليوم كنت أتحدث هاتفيًّا إلى الدكتور ريتشارد فيوز، ضابط وكالة الاستخبارات الأمريكية المسؤول عني، بخصوص ترشيح روبرت مويلر لرئاسة مكتب التحقيقات الفيدرالي[27]. لقد أَدْمَتْ تلك المحادثة قلبي وأنا قابعة في تلك الزنزانة الضيقة بانتظار قدوم أحد القضاة لإخراجي بكفالة كما لو كنت مجرمةً.

## حقيرون

«لم يحدث قط أن تلاعب ذلك الحقير بأي تحقيق إرهابي».

كان ذلك أول تعليقاتي في يوم جلسة استماع الكونغرس لإقرار تعيين مويلر، ولم يخطر ببالي كم كنت محقةً، أو أنَّني سأكون الهدف الرئيس للمحاولة اللاحقة لمكتب التحقيقات الفيدرالي بخصوص إخفاء الحقائق.

نعم، كما في قضية لوكيربي. وافقني الدكتور فيوز الرأي. «لقد قلب مويلر الأوراق عندما أراد الكونغرس تبرئة سوريا وإلقاء اللوم على ليبيا»[28].

كان مويلر يرأس القسم الجنائي في وزارة العدل في أثناء التحقيق في حادثة تفجير طائرة (البان آم 103)، المعروفة أيضًا بحادثة لوكيربي التي قُتل فيها (270) شخصًا[29].

كان رأيي ورأي الدكتور فيوز أنَّ اتهام ليبيا بالوقوف وراء هذه الحادثة هو خطأ.

وماذا أيضًا؟

«تفجير مدينة أوكلاهوما. ألم يكن مويلر إحدى الشخصيات المهمة التي رأت أنَّ تيموثي ماكفي وتيري نيكولز قد تصرفا وحدهما من دون أي مساعدة من أحد؟[30] كلنا يعرف أنَّ ذلك كان حماقةً، فلماذا كافأنا جنون العظمة عند ماكفي، وجعلناه الفاعل الوحيد؟ (تَسبَّب التفجير في قتل 168 شخصًا، وجرح أكثر من 600 آخرين، وحُكم على ماكفي بالإعدام).

مويلر مُقرَّب من السياسيين؛ لذا فإنَّ الكونغرس سيوافق على ترشيحه لهذا المنصب. هذا ما قاله لي الدكتور فيوز.

والحقيقة أنَّ معظم الأمريكيين قد يعترضون على وصف مويلر بالسياسي الذكي، أما آرائي أنا فتختلف كثيرًا عن آراء عامة الناس في الأغلب، ولكنَّ هذه المحادثة المتعلقة بجلسة تعيين مويلر، التي كانت قبل أسابيع من هجمات الحادي عشر من سبتمبر، تُفسر السبب الذي جعلني أتذكَّر تواريخ الأحداث بمنتهى الدقة والوضوح، وأُحدِّد كل عمل قمت به في أي يوم من أيام الأسبوع.

وفيما يتعلق بتفجير مدينة أوكلاهوما، فقد أمر مويلر عام 2005م بإعادة فتح التحقيق لمعرفة إذا كان التفجير جزءًا من مؤامرة أوسع، لكنَّني لم أكن أعرف ذلك في شهر أغسطس عام 2001م[31].

— هل تريدين مني إفشال جلسة الاستماع بعد ظهر اليوم، وكشف بعض الحقائق للكونغرس؟

— لا لا، لقد فات الأوان.

— هل فات الأوان بالنسبة إلى جلسة الاستماع، أم وقف هجوم ما؟.

— كلاهما، كما أعتقد.

— أنت تعتقدين أنَّ الوقت قد تأخر.

— أعتقد ذلك.

كان ذلك في الثاني من شهر أغسطس عام 2001م، وقد شعرت برعب شديد يجتاحني.

خيَّم الصمت علينا بعض الوقت.

— لا نستطيع أن نفعل شيئًا يا ريتشارد.

— حقًّا، لا نستطيع.

لقد أوحى رده الغاضب بعظيم القلق الذي يعتريه، كنا قد عملنا معًا سبع سنوات، تواصلنا خلالها حتى من دون كلام إذ كان ذلك ضروريًّا، كنا نتواصل بوساطة نظرات عيوننا، ونفهم ما تعنيه بطريقة لا يستطيعها غيرنا، فبالنسبة إلى طريقة فيوز في التفكير، يصبح الغضب والقوة مؤثرينِ عندما نتحكم فيهما، وقد آمنت دائمًا بما يقول؛ إذ تعامل مع أخطر الناس على هذا الكوكب، ونجح في ذلك. أما مسؤولي الثاني بول هوفين فكان عصبيًّا سريع الغضب؛ إذ كان يكيل الشتائم لخصومه، ويُخزِّن في جوفه غضبًا من أيام خدمته في فيتنام. أما أنا فقد كنت ناشطة سلام تحولت إلى ضابط اتصال مكلف بملف البعثتين العراقية والليبية في الأمم المتحدة بنيويورك.

كانت هذه المهمة تتطلب عقد بعض اللقاءات الإستراتيجية، لكنَّ الرَّجلين - بالرغم من تناقض شخصيتيهما- كانا مثل أخوين لي.

كانا أحيانًا يُكشِّران في وجهي، أو يتعاملان معي كأخت صغيرة مزعجة لهما، لكنَّهما لم يتخليا عني قط، ويحرصان على مشاركتي فرحة انتصاراتي، وتوجيهي إذا انحرفت عن جادة الصواب.

كنا قريبينَ بعضنا من بعض، إلى أن جاءت هجمات الحادي عشر من سبتمبر، فحطَّمت قلوبنا.

اتصلت به مرَّةً قائلةً:

— أنا ذاهبة إلى نيويورك، سأسأل العراقيين مرَّةً أخرى، سأضغط عليهم يا ريتشارد.

— ماذا؟ متى ستذهبين؟ بدا لي القلق واضحًا في صوته.

— سأذهب في نهاية هذا الأسبوع.

— لا لا، ليس نهاية هذا الأسبوع، لا تذهبي إلى نيويورك يا سوزان، لا تذهبي.

— سأذهب في نهاية الأسبوع فقط، سأُنهي عملي بعد غدٍ، ثم أعود سريعًا.

— اللعنة! لا أريدك أن تذهبي، لا أعتقد أنَّ من الحكمة فعل ذلك.

— عليَّ أن أقوم بآخر رحلة؛ فقد ضغطت على العراقيين طوال الصيف يا ريتشارد، يجب أن أعرف إذا كانوا قد تلقوا شيئًا من بغداد، بعدها لن أعود إليها مرَّةً أخرى.

— لا تذهبي إلى بغداد، لا أريدك أن تذهبي مرَّةً أخرى، ثم أرجوك يا سوزان لا تبيتي فيها؛ فالوضع خطير جدًّا، اذهبي بسرعة، وعودي بسرعة. وعلى ذكر ترشيح مويلر، ماذا لو حدث ذلك قبل تعيينه؟ قد لا يوجد رئيس لمكتب التحقيقات الفيدرالي عندما ينهار ذلك كله. يا إلهي! ماذا يعني ذلك؟

— تعني أنَّ هذا الهجوم قد يقع قبل الموافقة على تعيينه، وأنَّه قد يحدث في نهاية أغسطس، أو سبتمبر!

— أجل، من المحتمل جدًّا.

— ريتشارد، هل أفهم من هذا أنَّك تعتقد أنَّ هذا الهجوم قد أصبح وشيكًا؟

— نعم، أعتقد ذلك.

— وماذا سنفعل؟ علينا أن نقول ذلك لشخص ما.

— لا أعرف حتى الآن.

أستطيع أن أحس بذلك التوتر مرَّةً أخرى، كان يعني أنَّه لا يزال يُفكِّر، ويشعر بالإحباط.

— سوف آتي يوم الإثنين (السادس من شهر أغسطس) فور عودتي من نيويورك، سوف نناقش هذا الأمر معًا، اتفقنا؟

— هذا جيد. والآن، استمعي إليَّ، لقد أخبرتك من قبلُ؛ نحن نبحث عن أي شيء في هذه المرحلة مهما كان صغيرًا، قد يسقطون شيئًا صغيرًا لا يبدو لنا مهمًّا ونحن نجلس هنا، وقد لا نفهم حتى ماذا يعني.

— لقد فهمت، لقد فهمت.

— كلا، اسمعيني، لا تحاولي تقييم المعلومات، لا تنتظري معرفة إذا كان يمكنك التحقُّق منها، أعطني إياها، سنتحقق منها، احصلي عليها فقط، ولا تحاولي الاستنتاج وحدك.

— لقد فهمت.

كان قلقنا يزداد يومًا بعد يوم منذ الصيف الماضي؛ فقد جعلتنا محاكمة لوكيربي التي عُقدت في معسكر زيست عام 2000م، نُفكِّر في شكل العمل الإرهابي الثاني. لقد كان تفجير طائرة (البان آم 103) في الحادي والعشرين من شهر ديسمبر عام 1988م، وتفجير طائرة من نوع (دي سي 10) تابعة لشركة يوتا الفرنسية في شهر سبتمبر من عام 1989م، آخر الهجمات التي تعرَّضت لها الطائرات قبل الحادي عشر من سبتمبر عام 2001م. كان فريقنا طوال محاكمة الليبيين يخشى أن يؤدي الاستعراض العاطفي للمحامين الإسكتلنديين إلى نوع من (هجمات الوفاء).

ومع أنَّ معظم الأمريكيين رفضوا الاعتراف ببراءة ليبيا، فإن المشكلة الأساسية تمثلت في التنظيمات الإرهابية التي كانت تعرف الحقيقة، وتستغرب لماذا كانت الولايات المتحدة تحمي المجرمين الحقيقيين.

فقد اعترف الإرهابي أبو نضال صراحةً بدوره في تفجير الطائرة الأمريكية[32]، باسم المجلس الثوري لحركة فتح، ونفى أن يكون للمتهمينِ الليبيينِ علاقةً بالهجوم، وكان أبو نضال قد أنشأ أول منظمة إرهابية دموية تخصصت في اختطاف الطائرات، ومقايضة الرهائن بفِدْيات تُقدَّر بملايين الدولارات.

لقد نَفَّذ هذا التنظيم هجماتٍ إرهابيةً في (20) بلدًا، قتلت وجرحت أكثر من (900) شخص في عقدين[33]، وشارك التنظيم أيضًا في الحرب الأهلية بلبنان في ثمانينيات القرن الماضي، وتحالف مع الجهاد الإسلامي (الذي عُرِف لاحقًا باسم حزب الله)، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين – القيادة العامة، ثم استقر في ليبيا بعد مغادرة بيروت، وظل فيها حتى عام 1998م.

وبعد مقتله في تبادل لإطلاق النار مع رجال المخابرات العراقية ببغداد في شهر يوليو عام 2002م[34]، جرى حديث كثير عن اعتراف هذا التنظيم بتفجير لوكيربي؛ فقد اعترفت عائلته وأصدقاؤه بدوره الرئيس في تفجير طائرة (البان آم 103)، وأعربوا عن أسفهم لأنَّ مواطنًا ليبيًّا بريئًا أُدين بجريمة اقترفها أبو نضال.

لقد رفضت بريطانيا والولايات المتحدة اعتراف (أبو نضال)، لكنَّ السؤال الذي يتبادر إلى الذهن، هو: ما سبب هذا الرفض؟

كان المخططون الحقيقيون لتفجير لوكيربي متخصصين ومحترفين، وليسوا عمالًا لنقل أمتعة المسافرين، أو وكلاء لبيع تذاكر الطيران، كما هو حال المتهمينِ الليبيينِ عبد الباسط المقراحي، والأمين خليفة فحيمة؛ فقد تلقى هذان الرَّجلان تدريبات عالية المستوى في الأعمال الإرهابية بالتنسيق مع شبكة من المتعاونين الخطرين، أما اتهام المقراحي بسبب جنسيته الليبية، فهو اتهام سخيف وعنصري، ولم يكن مُستغرَبًا أنَّ شريكه قد أُطلق سراحه في شهر يناير من عام 2001م، لكنَّ وجه الغرابة هو أنَّ المقراحي لم يُطلَق سراحه معه.

لقد كان أداء المحامين الإسكتلنديين في أثناء سير المحاكمة سيئًا، حتى إنَّ فشل المحكمة الإسكتلندية كان موضوع تندُّر في عموم العالم العربي.

كان الدكتور فيوز يرى أنَّ تسييس قضية لوكيربي، وضعف الدليل الجنائي الذي قُدِّم إلى المحكمة، يُنذران بأخطار كبيرة، وفي الشهور التي سبقت هجمات الحادي عشر من سبتمبر، اشتكى الدكتور فيوز من إضرار الولايات المتحدة بمصداقيتها في أوساط التنظيمات الإرهابية بسبب قضية لوكيربي؛ ما جعل هذه التنظيمات تتساءل عما إذا كانت الولايات المتحدة، بالرغم من مصادرها الاستخباراتية الضخمة كلها، غبيةً جدًّا بحيث لم تستطع إلقاء القبض على الفاعل الحقيقي، أو أنَّها كانت خائفةً لأنَّ الإرهابيين الحقيقيين أقوياء جدًّا ومدعومون.

كان يقول إنَّ من شأن هذين الرأيين أن يُحرِّضا الجيل القادم من الجهاديين بصورة لا تقاوم؛ فقد تُلهم محاكمة لوكيربي الإرهابيين الشباب الذين يشاهدونها على شن نوع من (هجمات الوفاء) للأبطال الذين سبقوهم، وكانوا أكبر من أن يُلقى القبض عليهم.

ووفقًا لهذه الرؤية، وضع فريقنا سيناريو لتهديد متطرف يفترض احتمال حدوث هجوم كبير، يشمل عمليات اختطاف طائرات أو تفجيرها.

ففي الثاني من شهر أغسطس عام 2001م، وفي أثناء جلسة اجتماع الكونغرس للموافقة على تعيين مويلر رئيسًا لمكتب التحقيقات الفيدرالي، اعتقدت أنا والدكتور فيوز أنَّ أسوأ السيناريوهات على وشك الوقوع بدقة متناهية.

لم يأمل أيٌّ منا أن يكون هذا التوقع صحيحًا، لكنَّنا مع ذلك اعتقدنا بوجود إعداد منظم لعمل إرهابي كبير.

أتذكَّر ذلك بكل وضوح كأنَّني أشاهد فيلمًا سينمائيًّا يُعرض أمامي باستمرار.

لقد كان فيلمًا مؤلمًا، ونهايته مخيبة للآمال.

في شهر إبريل من عام 2001م، دُعيت إلى زيارة الدكتور فيوز في مكتبه بمدينة غريت فولز في ولاية فرجينيا، كنا في العادة نلتقي أسبوعيًّا، أما هذه المرَّة فقد اتصل بي في بيتي، وطلب إليَّ

أن أحضر حالًا، وقد استفسر مني عن موعد سفري إلى الأمم المتحدة في نيويورك، فشعرت أنَّه يريد أن يتحدث إليَّ قبل سفري، وأن أسافر في أسرع وقت ممكن.

كان دور القناة السرية بيني وبين العراق وليبيا هو نقل رسائل من واشنطن وإليها، حيث كانت العلاقات الرسمية بين هذينِ البلدينِ والولايات المتحدة مقطوعةً.

وقد أبقيت أنا وفريقي على مسار خاص لتلقي المعلومات الاستخباراتية عن الأنشطة الإرهابية التي قد يكشفها هذان البلدان، ويرغبان في إبلاغها للغرب، وأود أن أشير هنا إلى أنَّ الولايات المتحدة كانت، بالرغم من العقوبات والعزلة المفروضة على هذينِ البلدينِ، تولي اهتمامًا للنشاط الاستخباراتي من أجل إفشال العمليات الإرهابية، وترى أنَّ التعاون الاستخباراتي ضرورة استثنائية في السياسة الأمريكية الخارجية.

وقد كلفت لأكون المتلقي السري لهذه المعلومات بإشراف وكالة الاستخبارات الأمريكية، ووكالة استخبارات الدفاع.

لذلك، ذهبت لزيارة الدكتور فيوز فورًا، وقد نبَّهني على أن أطلب -بإلحاح- إلى ليبيا والعراق نقل أي معلومات تتعلق بالتخطيط لاختطاف الطائرات، أو تفجير المطارات، وأَصرَّ على ضرورة تحذير الدبلوماسيين من أنَّ بغداد قد تتعرَّض لهجوم عسكري كبير -أسوأ من أي هجوم تعرَّض له العراق من قبلُ- في حال اكتشاف الولايات المتحدة أنَّ حكومة بغداد كانت لديها معلومات ولم تبلغها عن طريق القناة السرية.

أعترف أنَّني كنت مترددةً في نقل هذه الرسالة القاسية؛ لأنَّني كنت طوال حياتي ناشطةً معارضةً للحرب، وكانت معارضتي للعنف من الطرفين سبب نجاحي في التعامل مع العرب؛ ولهذا فأنا لا أُوجِّه تهديدات إلى الآخرين، وإنَّما مجرد دعوات لتجنب المواجهة والعدوان؛ لذلك فقد نقلت في زيارتي الثانية لمدينة نيويورك طلب الدكتور فيوز بلطف؛ إذ رجوت الدبلوماسيين أن يبعثوا برقيات إلى طرابلس وبغداد لمراقبة أي نشاط محتمل لمهاجمة الطائرات، لكنَّني لم أُوجِّه أي تهديدات بعمل انتقامي ضد هاتين الدولتين.

عندما عدت إلى واشنطن قابلت الدكتور فيوز الذي طلب معرفة مدى استجابة العراق لتهديده، وقد اعترفت له أنَّني لم أنقل رسالته حرفيًّا، لكنَّني أكدت له أنَّني طلبت إليهم أن يتعاونوا.

عندئذٍ، اعترت الدكتور فيوز حالة من الغضب الشديد، لقد كان ذلك أمرًا غريبًا؛ فطوال سنوات عملنا معًا، لا أذكر أنَّه فَقَدَ أعصابه، وصرخ فيَّ، لقد قام عن كرسيه، وأخذ يذرع الغرفة جيئةً وذهابًا، وبدأ يُطلِق شتائم وعبارات بذيئة لا أستطيع أن أذكرها في هذا المقام.

ثم طلب إليَّ أن أعود إلى نيويورك فورًا، وأن لا أكون مؤدبةً أو لطيفةً، وأن أنقل إلى العراقيين ما قاله حرفيًّا: «ستَقصف الولايات المتحدة العراق، وتعيده إلى العصر الحجري، وسيكون القصف أسوأ مما تعرَّض له العراق من قبلُ، في حال اكتشف أي مخطط إرهابي لاختطاف الطائرات أو تفجيرها، ولم يُبلِّغنا بذلك؛ سيخسرون كل شيء، سندمرهم».

ما عدا ذلك، فقد كان ريتشارد أكثر صراحةً، وأرادني أن أنقل لهم أنَّ «هذه التهديدات جاءت من أعلى المستويات في الحكومة؛ أعلى من مدير وكالة الاستخبارات الأمريكية ووزير الخارجية».

كانت تلك كلماته الحقيقية، ولم تكن غامضةً؛ فهي تعني أنَّ هذا المستوى الرفيع كان الرئيس جورج بوش، أو نائب الرئيس ريتشارد تشيني، أو وزير الدفاع دونالد رامسفيلد.

لم يهدأ الدكتور فيوز حتى أكدت له أنَّني سأنقل رسالته بالحدة التي عبَّر فيها عنها.

عندها، عبَّر عن ثقته الكبيرة بأنَّني سأذكر للعراق أنَّ التهديد جاء من وكالة الاستخبارات الأمريكية نفسها - وليس منه، أو مني شخصيًّا- مدعومًا بقوة عسكرية وسياسية من أعلى مستويات الحكومة؛ أعلى من رئيس وكالة الاستخبارات الأمريكية، ووزير الخارجية.

لقد بدا واضحًا أنَّ ريتشارد كان مدفوعًا بأكثر من مجرد الرغبة في تضييق حلقة الإرهاب، شيء ما كان يجري في الخفاء.

في أواخر شهر إبريل من عام 2001م، انضم الدكتور فيوز علنًا إلى اللعبة، وأطلق تهديدات لثني الحكومات العربية عن دعم المخطط المحتمل، ومن دون أن أعرف المزيد، صمَّمت على

تقديم المساعدة؛ لهذا فقد عدت إلى نيويورك في شهر مايو عام 2001م، ونقلت رسالته كما أملاها عليَّ تمامًا.

ازداد التوتر في صيف عام 2001م، وناقشنا عمليًّا هجوم الحادي عشر من سبتمبر؛ فقد أصبح السيناريو هذه المرَّة أكثر تفصيلًا. وأخذنا في يونيو نركِّز على مركز التجارة العالمي.

كان الأمر يبدو غامضًا وموحشًا، لكنَّ فريقنا عرف ما سيحدث تحديدًا، وأدركنا أنَّ الهدف كان محددًا بدقة، وأنَّ الهجوم سيكمل الحلقة التي بدأها رمزي يوسف في الهجوم على مركز التجارة العالمي عام 1993م، وتوقعنا أنَّ الوسيلة المستخدمة ستكون طائرات يستولي عليها الخاطفون، ويستخدمونها مقذوفات لمهاجمة البرجين، وبحثنا أيضًا احتمال استخدام جهاز ذري حراري لتدمير البنايات، وقد كان هذا هو السبب الذي جعل الدكتور فيوز يطلب إليَّ الابتعاد عن نيويورك. لم يقلق أحد من احتمال إصابتي في حال انهار البرجان، لكنَّ المسؤولين عني كانوا قلقين من تعرُّضي لملوِّثات مكوِّنات عسكرية تَعلق في الغبار أو الهواء، بما في ذلك الإشعاع الذري.

أما كيف عرف الدكتور فيوز هذه المعلومات كلها، فأمر لا أستطيع التكهُّن به؛ ففي شهري يونيو ويوليو من عام 2001م، ظل فيوز يبحث ويسعى إلى الحصول على أي معلومات استخباراتية من العراق، ولم يأتِ على ذكر ليبيا بعد لقائنا الأول في شهر إبريل.

لقد ظل يلح عليَّ مرَّةً تلو الأخرى أن أُهدد العراق -وليس ليبيا- في حال وقوع الهجوم المحتمل، ومما لا شك فيه أنَّ متآمرين من مؤيدي الحرب من المحافظين الجُدد في أعلى الهرم الحكومي ظلوا يضغطون على مجتمع الاستخبارات قبل أشهر من هجمات الحادي عشر من سبتمبر؛ للقبول بإعلان الحرب على العراق في أعقاب الهجوم المتوقع.

في شهر مايو عام 2001م، قدَّم العراقيون حلًّا سريعًا؛ فقد وافقت بغداد - منذ الأيام الأُولى لإدارة بوش- على السماح لمكتب التحقيقات الفيدرالي بإرسال فريق لمكافحة الإرهاب إلى العراق؛ لمراقبة الجهاديين المتطرفين الذين قد يحاولون استغلال ضعف سلطة الحكومة المركزية لشن هجمات إرهابية في دول الجوار، وكانت وكالة الاستخبارات الأمريكية قد تقدَّمت بهذا الطلب عن طريقي بعد الهجوم على المدمرة الحربية الأمريكية يو إس إس كول في المياه

اليمنية في شهر أكتوبر عام 2000م، ووافق العراق على إبداء حُسن نوايا تجاه السعودية ودول الخليج.

هل ترون كيف أساءت محطتا سي إن إن وفوكس نيوز فهم موقف العراق؟

عندما وضعنا سيناريو الحادي عشر من سبتمبر أمام العراقيين، استمال هؤلاء وكالة الاستخبارات الأمريكية بذكاء، قائلين: «ربما تكون هذه هي اللحظة المناسبة ليبدأ مكتب التحقيقات الفيدرالي عمله، فإذا كانت الولايات المتحدة قلقةً، فعلى المكتب أن يأتي فورًا». هكذا قال الدبلوماسي العراقي.

إنَّ العالم يعرف أنَّ هذا لم يحدث قط، في ذلك الوقت بررت الأمر بأنَّ إدارة بوش الجديدة لا تزال تتلمس طريقها في السياسة الخارجية، ومع استمرار التهديدات الأمريكية استمر العراق في دعوة مكتب التحقيقات الفيدرالي إلى زيارة العراق، أعربت في هذه الأثناء عن استيائي من بطء التقدم في إدارة بوش؛ لما بدا لي أنَّه أمر غير طبيعي بعد ثماني سنوات من ذهاب إدارة كلينتون التي تميّزت بسياسة اتخاذ قرارات حاسمة وسريعة.

لقد كانت تسعينيات القرن العشرين تُسمى سنوات الهدوء بالنسبة إلى الاستخبارات الأمريكية. ومن وجهة نظر ضابط اتصال سري، فقد بدا وصول إدارة جورج بوش مثل قيادة سيارة مازيراتي فائقة السرعة بعد صَبّ أحد الأغبياء زيتًا ذا جودة رديئة في الماكينة، فأخذت تهتز وتُصدِر أصواتًا مزعجةً، عندئذٍ لن تعرف إن كانت السيارة ستظل صالحةً إلا بعد عمل الميكانيكي على حل المشكلة، أو تتعطل في الشارع.

كان هذا حال سياسة الجمهوريين في مكافحة الإرهاب قبل هجمات الحادي عشر من سبتمبر؛ أما مشكلتنا فتمثلت في أنَّه كان على وكالة الاستخبارات الأمريكية الاستمرار في قيادة هذه السيارة بالوضع الذي كانت عليه، وكان علينا أن نمنع التهديدات الإرهابية المُوجَّهة إلى الولايات المتحدة؛ سواء أمستجيبًا للتحذيرات من هذه التهديدات كان البيت الأبيض أم لم يكن كذلك.

قبل هجمات الحادي عشر من سبتمبر لم يكن البيت الأبيض متجاوبًا، وأشك في أنَّني كنت الوحيدة التي شعرت بالإحباط.

فطوال شهري يونيو ويوليو طلب إليَّ الدكتور فيوز أن لا أحاول التحقُّق من صحة المعلومات الاستخباراتية أو دقتها قبل إعلامه بها. لقد كان يبذل جهدًا كبيرًا في أثناء لقاءاتنا ليشرح لي حاجته الملحَّة إلى معرفة أي شيء، حتى لو كان طرف خيط من هذه المعلومات، بصرف النظر عن أهميتها بالنسبة إليَّ، ورجاني أن لا أخفي عنه شيئًا، بدا لي أنَّه كان حريصًا على معرفة أي شيء قد يساعد على إفشال الهجوم قبل وقوعه. وللحقيقة، فإنَّ هذه الفئة من وكالة الاستخبارات الأمريكية، ووكالة استخبارات الدفاع، كانت صادقةً في سعيها لوقف هجمات الحادي عشر من سبتمبر.

لكنَّ تهديدنا بعمل انتقامي مُوجَّه إلى العراق بدا لي أنَّه إستراتيجية خطيرة؛ فأنا شخصيًّا استملت دبلوماسيي السفارة العراقية إلى جانبي منذ أغسطس 1996م، وأقمت معهم علاقة مهنية متينة ما كان لها أن تنقطع لأي سبب، وفي الوقت نفسه كان فريقنا يعمل على إعداد مشروع يضمن تحقيق الأهداف الأمريكية كلها في المرحلة التي تعقب رفع العقوبات عن العراق، ومن ذلك التزام حكومة بغداد بدعم الجهود الدولية لمحاربة الإرهاب.

لا تزال ذكريات تلك المرحلة تُسبِّب لي ألمًا شديدًا.

في اليوم الثاني من شهر أغسطس عُدْت لأُطمئن الدكتور فيوز مرَّةً أخرى، فقلت له: «أنا أعرف ما تريدون، لقد كنت أضغط على العراقيين طوال الصيف للحصول على معلومات عن هذا الهجوم، وهم يعرفون العواقب»، فقال: «قولي لهؤلاء الأوغاد مرَّةً أخرى أنَّهم سيتعرضون لقصف لم يعرفوه من قبلُ، هل تفهمين؟ إذا كانوا يعرفون شيئًا، فمن الأفضل لهم أن يقولوه لنا، وإلا فسندمرهم، كوني واضحةً في ذلك».

وعدته أن أفعل ذلك. وفي الرابع من شهر أغسطس، قمت برحلتي الأخيرة إلى السفارة العراقية والبعثة الليبية قبل ذلك اليوم المحتوم من شهر سبتمبر.

بعد ذلك صرت أسأل نفسي عما إذا كنت قد أسأت فهم بعض الإشارات الدقيقة، أو ضغطت بشدة على مصادر معلوماتي، أو كان عليَّ أن أضغط أكثر على الجمهوريين ليتوقفوا عن إضاعة الوقت، ويرسلوا مكتب التحقيقات الفيدرالي إلى بغداد. وقبل كل شيء، فقد ندمت كثيرًا لأنَّني لم أرجع إلى نيويورك بعد بداية شهر أغسطس، وسوف أظل لسنوات ألوم نفسي؛

لأنَّ هجمات الحادي عشر من سبتمبر كانت فشلًا شخصيًّا بالنسبة إليَّ، كنت أسأل نفسي في ليالٍ كثيرة عما إذا كان بول وريتشارد يشعران بما أشعر به أيضًا.

كانت هذه الشكوك تعذبني، وكنت أعتقد أنَّها تعذبهما أيضًا؛ فكما ترى لقد كانت مهمتي وقف ذلك الهجوم حيث عملت سنوات عدَّة ضابطَ اتصالٍ سريًّا لاستخبارات مكافحة الإرهاب، لقد كان ذلك هو الجزء الأكبر من حياتي، وقد فشلت في أداء المهمة هذه المرَّة.

لهذا، فإنَّني أُعرب عن أسفي لعائلات الضحايا، لكنَّ الأمريكيين سيكونون مخطئين إذا اعتقدوا أنَّ فريقنا لم يأخذ التهديد بجدية كبيرة؛ لأنَّنا كنا نبحث عن أي معلومات لوقف عملية اختطاف الطائرات، ووضعنا ذلك على رأس أولوياتنا.

ومن أجل أن تدرك الجدية التي تعاملت بها مع تعليمات الدكتور فيوز وشكوكه، يتعيَّن عليك أولًا أن تعرف أوراق اعتماده لدى وكالة الاستخبارات الأمريكية.

من المعروف أنَّ الوكالة تُطبِّق سياسة عدم الإفصاح عن هوية ضباطها، إلا أنَّني تلقيت إيجازًا شاملًا عن تاريخ الدكتور فيوز من مسؤولي بول هوفين بمناسبة تعارفنا في شهر سبتمبر عام 1994م، فإذا كنا سنعمل معًا فإنَّ لي الحق في معرفة الشخص الذي أعمل معه، وقد أكدت لي مصادري الليبية والعربية – وكذلك الدكتور فيوز نفسه – حُسن نواياه طوال ثماني سنوات من العمل معه.

كانت معظم أنشطته في الشرق الأوسط محاطةً بالسرية، لكنَّ سيرة حياته تومئ ببعض الإشارات المثيرة.

تقول شركته ( فولكون ليميتد ) إنَّها «قدَّمت خدمات متنوعة في الشرق الأوسط، بما في ذلك سوريا، والاتحاد السوفيتي بين عامي 1980م، و 1990م» [35].

توجد شركة ثانية خارجية اسمها خدمات حقل النفط المحدودة ( أويل فيلد سيرفسز ليميتد )، ومقرها جزر برمودا، كانت تُوفِّر عمالة ومساعدة فنية لصناعة النفط السورية بين عامي 1989م، و 1990م، ولها مكاتب في دمشق[36].

أما شركة ميدكوم أنكوربوريشن التي أسَّسها الدكتور فيوز عام 1970م، فكانت متخصصةً في التدريب العسكري الطبي في عموم الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وقد دربت الآلاف من المواطنين العرب (معظمهم من السعودية) على المهارات المتخصصة»[37].

وإذا تعمقنا أكثر نجد أنَّ الدكتور فيوز كان عميلًا كبيرًا لوكالة الاستخبارات الأمريكية بسوريا ولبنان في ثمانينيات القرن الماضي، وهو أمر كان يعترف به علانيةً. وقد وصف في جلسة خاصة كيف نسَّق فريقه في بيروت لإطلاق سراح الصحفي في وكالة أسوشيتد برس تيري أندرسون والمبشر الإنجيليكاني تيري ويت وآخرين من خاطفيهم في لبنان؛ فقد حدَّد هذا الفريق موقع السجن المتنقل في الأزقة الخلفية لمدينة بيروت، واستدعى قوة الدلتا لتنفيذ عملية تحرير جريئة، لكنَّ عملية الإنقاذ تأجَّلت أشهرًا عدَّةً لاستغلال الحدث الإخباري في التأثير في نتائج الانتخابات الرئاسية عام 1988م التي فاز فيها جورج بوش الأب. لم يغفر الدكتور فيوز قط لوكالة الاستخبارات الأمريكية استخدام الرهائن في لبنان ورقةً رابحةً لصالح السياسيين في واشنطن، ونتيجة سعيه الحثيث للعثور على موقع المخطوفين؛ فقد أصبح الدكتور فيوز الشاهد الرئيس على الأحداث التي قادت إلى تفجير طائرة (البان آم 103) [38].

يُذكَر أنَّ وكالة الاستخبارات الأمريكية قاتلت بضراوة لمنعه من الإدلاء بشهادته في محاكمة لوكيربي، وقد توصل الطرفان إلى حل وسط سُمح فيه للدكتور فيوز بإيداع شهادته لدى المحكمة الفيدرالية في مدينة الإسكندرية بولاية فرجينيا، ثم وضعها القاضي داخل ظرف مختوم [39].

وقد مُنع الدفاع من الكشف عن أي جزء من هذه الوديعة داخل الولايات المتحدة، مع السماح بقراءتها فقط خارج الولايات المتحدة [40].

ومع ذلك، لم يستطع المحامون الإسكتلنديون الاطلاع على هذه الشهادة كاملةً؛ لأنَّ أجزاءً منها كانت موضوعةً داخل مغلَّفين.

والأكثر من ذلك أنَّ المحكمة اتخذت خطوة غير عادية منعت فيها المحامين الأمريكيين الذين أشرفوا على الشهادة من إطلاع نظرائهم الإسكتلنديين على المعلومات الحساسة في الصفحات التي وضعت داخل مغلَّفين. لذلك، فإنَّ المحامين الإسكتلنديين لا يعرفون قيمة شهادة الدكتور فيوز؛ إذ لا يُسمح إلا لقاضٍ واحد بفتح الوثيقة والاطلاع عليها كاملةً.

وفي الحقيقة، فقد كان حريًّا بالمحامين أن يتعرفوا هذه الشهادة؛ لأنَّ تفاصيلها الموضوعة داخل مغلَّفين ضمَّت أسماء (11) رجلًا ممن شاركوا في التخطيط لعملية لوكيربي.

ولكن، لماذا كل هذا الغموض والتستر؟ لأنَّ الدكتور فيوز، بعد أسابيع قليلة من اجتماعنا في عام 1994م، استُبعد قانونيًّا من القضايا المتعلقة بالأمن الوطني؛ فقد أصدر القاضي رويز لامبيرث بواشنطن حكمًا قضائيًّا قاطعًا في الرابع عشر من شهر أكتوبر عام 1994م، جاء فيه: «تؤيد المحكمة مطالبة الولايات المتحدة بالتمسك بامتياز الاحتفاظ بأسرار الدولة (الخاص بالدكتور فيوز)[41]، ولا يحق للأطراف أن تكشف عن المعلومات المقدمة من طرف واحد في جلسة سرية مغلقة في أثناء التدابير جميعها الخاصة بهذا الحكم، ويجب استبعادها من الأدلة المقدمة في المحاكمة. وفي الظروف التي تراها الولايات المتحدة ضرورية، يستطيع المحامون الأمريكيون أن يحضروا جلسات إيداع الشهادة المكتوبة، وأن يتقدموا باعتراضات لحماية المعلومات الخاصة بالأمن الوطني»[42].

تشير عبارة «من طرف واحد في جلسة سرية مغلقة» إلى فئة استثنائية من الأدلة تُقدَّم للقاضي فقط بعيدًا عن أعين محامي الدفاع.

لا يحق أيضًا لمحامي الدفاع أن يعلم بوجودها، ولا يستطيع الاعتراض على أي من محتوياتها، وكان هذا التصنيف الخاص نادرًا ما يُنفَّذ في مطلع التسعينيات من القرن الماضي قبل إقرار قانون الباتريوت.

لقد منح الحكم الذي أصدره القاضي لامبيرث حكومة الولايات المتحدة الحق في منع الدكتور فيوز من الإدلاء بشهادته في أي قضية جنائية أو مدنية بتنفيذ قانون أسرار الدولة.

ويستطيع الرئيس فقط أن يتجاوز رئيس وكالة الاستخبارات الأمريكية، وأن يجبر الدكتور فيوز في مذكِّرة مكتوبة على كشف معلوماته ومصادره في القضايا المتعلقة بالأمن الوطني؛ سواء أكبيرةً كانت أم صغيرةً[43].

ولا يستطيع وزير الخارجية أو أي عضو في الكونغرس إبطال هذا الشرط، وحتى لو أراد الدكتور فيوز نفسه المشاركة في تحقيق رسمي، فإنَّه سيُمنع من ذلك.

وينطبق هذا المنع على قضية لوكيربي، وعلى أي تحقيق بخصوص هجمات الحادي عشر من سبتمبر، وعلى قضيتي الجنائية التي اتُّهمت فيها أنَّني (عميلة عراقية).

وقد حدث أن نشرت صحيفة هيرالد صنداي الإسكتلندية تقريرًا عن المعلومات المباشرة التي يملكها الدكتور فيوز بخصوص تفجير طائرة (البان آم 103)، وعدم قدرته على الشهادة، وذلك في ذروة محاكمة لوكيربي عندما رأت العائلات الإسكتلندية ضعف الأدلة المقدمة التي تدين ليبيا، وأخذت تطالب بأجوبة حقيقية.

وفي شهر مايو من عام 2000م، سأل الصحفي الإسكتلندي إيان فيرغوسن الدكتور فيوز مباشرةً إن كان قد عمل لصالح وكالة الاستخبارات الأمريكية في ثمانينيات القرن الماضي[44]. لم يكن جوابه في الواقع مباشرًا وصريحًا حين قال: «هذه ليست مسألة أستطيع نفيها أو تأكيدها؛ إذ من غير المسموح لي الحديث عن هذه القضايا. وفي الحقيقة، فأنا لا أستطيع أن أقول أي شيء، ولا حتى أن أشرح لك السبب الذي يمنعني من الحديث عن هذه القضايا». لكنَّه ذكر- على أي حال- أنَّه لن يرفع قضية قانونية على صحيفة وصفته بالعميل لوكالة الاستخبارات الأمريكية.

كان الرأي موحَّدًا بين مصادري العربية؛ وهو أنَّ الدكتور فيوز جاسوس من الطراز الأول، وقد أكدت لي تعاملاتي معه قدراته الاستخباراتية الاستثنائية؛ لذلك عندما طلب إليَّ أن أُجبر مصدري الدبلوماسي العراقي على الإفصاح عن أي معلومات بخصوص أي خطة لاختطاف الطائرات، أو الهجوم الجوي على مركز التجارة العالمي؛ فقد تعاملت مع طلبه بجدية تامة، وكانت لديَّ أسباب تجعلني أثق به.

وكما تَبيَّن لاحقًا، فقد تأكد وجود أسباب غير عادية لقلق الدكتور فيوز؛ إذ بلغت (الثرثرة) بين الخلايا الإرهابية التي كانت وكالة الأمن الوطني تراقبها، مستوياتٍ غيرَ مسبوقة في شهر مايو عام 2001م، وتسارعت حتى الحادي عشر من شهر سبتمبر عام 2011م[45]. وكان فيلم لتنظيم القاعدة قد عُرِض في منتصف شهر يونيو، وتحدث فيه أسامة بن لادن، قائلًا: «فإنَّ إخوانكم في فلسطين ينتظرونكم على أحرٍّ من الجمر، وينتظرونكم في أن تثخنوا في أميركا وإسرائيل»[46].

لقد تَبيَّن أنَّ شهر يوليو كان حاسمًا في التحذير من هجمات الحادي عشر من سبتمبر، ففي العاشر من شهر يوليو عام 2001م، انتابت حالة من القلق رئيس وكالة الاستخبارات الأمريكية، جورج تينيت، بعد استماعه إلى إيجاز سري عن تهديد إرهابي من تنظيم القاعدة، حتى إنَّه ذهب مباشرةً إلى البيت الأبيض. في ذلك الإيجاز، افترض أحد كبار المحللين في وكالة الاستخبارات الأمريكية أنَّ هجومًا كبيرًا سيحدث في الأسابيع القليلة القادمة، لكنَّه لم يُحدِّد تاريخًا لذلك.

لم يُضيِّع تينيت الوقت في نقل هذه المعلومات - كتابةً- إلى وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس، فأخذ معه أحد ضباط الوكالة المكلف بملاحقة أسامة بن لادن، وقدَّم للوزيرة ومسؤولين آخرين إيجازًا شفويًّا [47]، وقد اعترف المستشار السابق في مكافحة الإرهاب ريتشارد كلارك بأهمية هذا التقرير، أما الضابط الذي قدَّم الإيجاز فقد قال إنَّ على الولايات المتحدة «أن تستعد للحرب الآن».

واللافت أكثر أنَّ وزير خارجية طالبان وجَّه تحذيرًا مباشرًا لواشنطن يفيد بأنَّ أسامة بن لادن يُحضِّر لشن هجوم ضخم على الولايات المتحدة [48].

وكانت حركة طالبان قد تلقت مساعدة مالية من الولايات المتحدة قبل هجمات الحادي عشر من سبتمبر لتدمير زراعة الخشخاش في أفغانستان التي تُنتِج ما نسبته (85%) من الأفيون والهيروين في العالم؛ ولذلك، كان من الواجب التعامل مع هذا التحذير بمنتهى الجدية.

ومع أنَّها لم تكن معلومات تستدعي اتخاذ إجراء بشأنها، فإن الاستخبارات الأمريكية اكتشفت بعض المعلومات المهمة.

في الوقت نفسه أخذت وكالات الاستخبارات الخارجية الصديقة تنقل تحذيرات خطيرة عن هجوم في أواخر الصيف وبداية الخريف، تُستخدَم فيه الطائراتُ أسلحةً لمهاجمة أهداف داخل الولايات المتحدة. ونقلت إسرائيل والأردن ومصر، وهي دول لها تاريخ طويل في التعاون مع الاستخبارات الأمريكية، معلومات مماثلة لهجوم إرهابي وشيك قبل أربعة أسابيع من هجمات الحادي عشر من سبتمبر، وفي السابع من شهر سبتمبر عام 2001م بعثت الاستخبارات الفرنسية برسالة عاجلة عن هجوم وشيك داخل الولايات المتحدة تُستخدَم فيه الطائرات [49].

وذكرت الصحف الألمانية أنَّ خاطفي الطائرات أجروا (206) مكالمات هاتفية دولية قبل الهجوم، وقد رفضت وكالة الأمن القومي نشر قائمة مفصلة بالمكالمات، ولكن يقال إنَّها كانت مُوجَّهةً إلى المملكة العربية السعودية وسوريا [50].

أما المؤشر الأكبر بخصوص المعرفة السابقة عن هجوم إرهابي وشيك، فجاء من التحذير العادي الذي تُصدِره وزارة الخارجية للمواطنين الأمريكيين الموجودين في الخارج؛ ففي يوم الجمعة السابع من شهر سبتمبر، أصدرت وزارة الخارجية تحذيرًا على مستوى العالم، جاء فيه: «قد يتعرض المواطنون الأمريكيون لتهديد إرهابي من مجموعات متطرفة لها علاقات بتنظيم القاعدة»، وقد تضمَّن هذا التحذير معلومات جُمعت في شهر مايو من عام 2001م، وأشارت إلى وقوع هجوم وشيك، ونُبِّه فيه على أنَّ «أعضاء القاعدة لا يُفرِّقون بين الأهداف الرسمية والمدنية» [51].

ولأنَّه كان عميلًا متخصصًا في قضايا الإرهاب الشرق أوسطي منذ ثمانينيات القرن الماضي؛ فقد حظي الدكتور فيوز بميزة الاطلاع على هذا النوع من المعلومات الاستخباراتية الأولية.

ولكن ما لم يتوافر هو المعلومات الاستخباراتية المؤكدة التي يمكن الاعتماد عليها لوقف الهجوم؛ مَن هم الإرهابيون؟ كم عددهم؟ أي المطارات والطائرات ستُستخدَم؟ ما أرقام الرحلات؟

طوال أيام الصيف كان الدكتور فيوز يُلِحُّ عليَّ لأعطيه أي شيء؛ مجرد اسم، أو رقم، أو جزء من معلومة. وقد أكد لو أنَّني تمكنت من الحصول عليها، فإنَّ وكالة الأمن القومي ووكالة الاستخبارات الأمريكية ستعملان وقتًا إضافيًّا لتحليلها من أجل وقف الهجوم.

بقدوم شهر أغسطس أصبح البحث عن المعلومات جنونيًّا، وكان لديَّ دليل مادي يُثبِت أنَّ فريقنا لم يكن هو الوحيد الذي كان يبحث عن معلومات استخباراتية طوال أيام الشهر. وفي أثناء جولة لي في اليابان للترويج لهذا الكتاب قبل نشره، تحدثتُ مُطوَّلًا عن نشاط فريقنا المحموم في الأسبوع الحاسم، بعد جلسة استماع مجلس الشيوخ لتعيين روبرت مويلر في الثاني من شهر أغسطس.

عندما عدت من اليابان ذهلت عندما عثرت على النسخة الأصلية من صحيفة وول ستريت جورنال الصادرة بتاريخ 30 يوليو 2001م، موضوعةً على مكتبي بجانب جهاز الحاسوب، وقد وُضع عليها ثقل زجاجي زهري اللون.

كانت النسخة، التي مضى عليها عشر سنوات مُوجَّهةً إلى رئيسي في الوظيفة الاستشارية التي كنت أعمل فيها في صيف عام 2001م، كان ذلك هو اليوم الذي هاتفت فيه الدكتور فيوز لنتحدث عن ترشيح روبرت مويلر.

بدا لي أنَّ شخصًا ما قد تجشَّم عناء تتبع مصدر مكالمتي مع الدكتور فيوز، وزار مكتبي قبل أسابيع من هجمات الحادي عشر من سبتمبر، وكان واضحًا أنَّه يبحث عن أي خربشات أو أوراق قد أكون تركتها في المكتب، يمكن أن تعطي إشارة إلى ما يمكن أن يكون فريقنا قد اكتشفه عن مخطط الحادي عشر من سبتمبر حتى الآن.

ومن المعتاد في أعمال التجسس التقاط صحيفة من على المكتب في حالات مثل هذه وتصويرها، مع ذكر العنوان والتاريخ، يعني هذا تقديم دليل حي على نشاط الشخص الذي قام به.

وهو يعني أيضًا أنَّ فريق استخبارات آخر نجح في فتح قفل الباب للولوج إلى داخل المكتب، وهذا النوع من السلوك ضروري أحيانًا في عالم الاستخبارات، وهذا ما حدث.

والواقع أنَّ نسخة الجريدة التي ثبَّتها (الزوار) على مكتبي كانت متأخرةً لتضمينها الطبعة الأُولى من هذا الكتاب، وأنا أكشف هذا الأمر الآن؛ لأنَّني تأثرت كثيرًا برغبة الناس في معرفة أكبر قدر ممكن عن الأحداث السابقة لهجمات الحادي عشر من سبتمبر، وفي الأحوال كلها، كان وجود هذه النسخة في مكتبي دليلًا على أنَّ أجهزة استخبارات أخرى كانت تعمل جاهدةً مثلنا لوقف الخطر المتوقع؛ كان ذلك سباقًا لوقف العنف تجاه الولايات المتحدة، وليس منافسةً؛ كان الجميع قلقين من الخطر القادم. صحيح أنَّ كل فريق كان يعمل باستقلالية، ولكنَّنا (في معظم الأوقات) نعمل معًا في جبهة واحدة، ومن أجل الأهداف المشتركة نفسها.

وأود أن أذكر هنا أنَّني كنت أشعر بالاستياء من الأكاذيب التي اختلقها الجمهوريون الجُدد في الكونغرس في أعقاب هجمات الحادي عشر من سبتمبر؛ لقد اتهموا - في هذه الأكاذيب- مجتمع الاستخبارات أنَّه يعمل بطريقة متعالية.

والحقيقة أنَّ مجتمع الاستخبارات - قبل نجاح الجمهوريين في اختراقه لفرض توافق سياسي في مؤامرة التستر على أسرار هجمات الحادي عشر من سبتمبر وغزو العراق- كان يتميَّز بالاستجابة السريعة، وبشهرته في اجتذاب ضباط ميدانيين نوابغ من أفضل المخططين الإستراتيجيين المبدعين القادرين على حل المشكلات، لقد كانوا الأفضل، والأكثر ذكاءً.

قبل الحادي عشر من سبتمبر كان مجتمع الاستخبارات يُمسك بزمام الأمور، أما فيما يتعلق بمصادري العراقيين فلم تكن لديهم معلومات استخباراتية ملموسة، وقد أُسقط في أيديهم عندما قابلتهم في رحلتي الأخيرة إلى نيويورك في الرابع من شهر أغسطس عام 2001م. لقد أُنذروا بتحمُّل العواقب إذا حدث شيء رهيب؛ فالرد سيكون سريعًا وقاسيًا. ولكن، كل هذا لم يُغيِّر الحقيقة القاسية، وهي أنَّهم لا يملكون شيئًا يعطونا إياه.

في دفاعهم عن موقفهم احتج الدبلوماسيون العراقيون، قائلين: كيف تطلب الولايات المتحدة التعاون وهي لم تتخذ أي خطوة لإرسال فريق من مكتب التحقيقات الفيدرالي إلى بغداد؟ لقد كشف هذا الفشل في التحرك خللًا في القيادة الجمهورية الجديدة في واشنطن، ولسوء الطالع أنَّ بقيتنا كانوا مضطرين إلى العمل ضمن هذه المحددات.

أما من الناحية الإستراتيجية، فإنَّ هذا لم يكن -أُكرِّر لم يكن- غلطة وكالة الاستخبارات الأمريكية.

في اجتماعنا الثاني في السادس من شهر أغسطس عام 2001م، كان الدكتور فيوز متجهمًا، كان علينا عمل أي شيء، وكنا بحاجة إلى المساعدة.

تذكَّرت، وأنا قابعة في قفص الحجز في محكمة بالتيمور الفيدرالية، الأمر الذي اتفقت مع الدكتور فيوز على القيام به.

وتذكَّرت أيضًا بصورة خاصة وفي اليوم نفسه، وربما في الساعة نفسها، تسلَّم الرئيس بوش في مزرعة كراوفورد في تكساس، مذكِّرة من وكالة الاستخبارات الأمريكية تتحدث عن تهديد بوقوع هجوم إرهابي من شبكة أسامة بن لادن على الولايات المتحدة، وقد قيل لي إنَّ الرئيس بوش وضع المذكِّرة جانبًا، ثم قال: «حسنًا، والآن، وبعدما غطيتم عورتكم، دعونا نذهب لنلعب الغولف».

كنت قد علمت أنَّ اجتماع كراوفور قد صُوِّر لأغراض الدعاية، ولكنَّني لا أطيق مشاهدة هذا الفيلم بعد مرور عشر سنوات؛ لأنَّني ما زلت أشعر بالامتعاض حتى هذه الساعة من لا مبالاة الرئيس بوش ومسؤولي البيت الأبيض الآخرين، في الوقت الذي كانت فيه بقية دول العالم تتسابق لوقف هجوم الحادي عشر من سبتمبر،

وعن ذلك يقول سيدني بلومنتال، المستشار السابق للرئيس كلينتون: « لقد حاول ريتشارد كلارك لفت نظر إدارة بوش إلى تهديد القاعدة، كان يبدو أنَّهم لا يريدون الكشف عما حدث في السادس من أغسطس عام 2001م. في ذلك اليوم تلقى جورج بوش الإيجاز الأحدث والأخير عن الإرهاب، ثم إنَّ بوش أبلغ كلارك أنَّه لا يريد إيجازًا عن ذلك مرَّةً أخرى.

ومع أنَّ كلارك شعر بالرعب من التحذيرات التي سمعها بخصوص الهجوم المحتمل، فإن بوش كان غير مكترث أو مبالٍ، ويفتقر إلى أدنى إحساس بالمسؤولية. إنَّ للشعب الحق كله في معرفة ما حدث في السادس من أغسطس، وما فعله بوش، وما فعلته كوندوليزا رايس، وما فعله الآخرون، وماذا كان في مذكِّرة ريتشارد كلارك».

ولأنَّنا لم نكن على علم بأنَّ الرئيس بوش قد تجاهل تحذيرات وكالة الاستخبارات الأمريكية الواضحة؛ فقد اتفقت مع الدكتور فيوز على أنَّ أفضل طريقة لدفع الموضوع نحو الأمام هي طلب مساعدة عاجلة من وزارة العدل.

كان لا يزال أمامنا متسع من الوقت لوقف الهجوم، وبتعليمات من الدكتور فيوز اتصلت بالمكتب الخاص للنائب العام جون آشكروفت، الذي يضم نحو عشرين من كبار الموظفين، أخبرتهم أنَّني رئيسة فريق الاتصال الخاص بمكافحة الإرهاب المكلف بالتواصل مع البعثة الليبية والسفارة العراقية في الأمم المتحدة.

أردت من ذلك أن يدرك الموظف الموجود على الطرف الآخر أهمية موقعي وامتلاكي معلومات استخباراتية حسَّاسة قبل أن يُفكِّر في تجاهل مكالمتي، عندما تأكدت أنَّ الموظف أولاني جُلَّ اهتمامه تقدمت بطلب رسمي إلى مكتب المدعي العام لإعلان الاستنفار في أجهزة وزارة العدل جميعها؛ بحثًا عن أي معلومات تتعلق باختطاف الطائرات أو تفجيرها، وأوضحت له أنَّنا نعتقد أنَّ هجومًا كبيرًا على الولايات المتحدة على وشك الوقوع، مع احتمال سقوط ضحايا بصورة جماعية، وأنَّنا نعتقد أنَّ الهدف سيكون مركز التجارة العالمي الذي قد يتعرض لنوع من الضربات الجوية.

أعطيت الموظف أكبر قدر من التفاصيل المحددة؛ ونظرًا إلى الأخطار وتوقيت الهجوم، فقد طلبت أن يحظى طلبنا هذا للتعاون العاجل بالأولوية القصوى.

نصحني الموظف بالاتصال بمكتب مكافحة الإرهاب في وزارة العدل فورًا، وإبلاغه بما قلته له للتو، وقد فعلت ما نصحني به من دون إبطاء، فأبلغت المكتب بالتفاصيل، وطلبت إبلاغنا بأي معلومات محتملة فورًا.

عندما استعرضت ذلك كله في مخيلتي وأنا في قفص الحجز اجتاحني شعور بغضب شديد، وكدت أُجن، وناديت قاضي الكفالات، أردت أن أصرخ في وجهه أيضًا.

ولكنَّني كنت أعرف حقيقة ما يجري؛ لقد تأكدت أنَّ القادة الجمهوريين كانوا لا يريدون أن يعرف الشعب كُنْه التحذيرات التي أبلغناها لوزارة العدل، خاصةً وهم في خضم حملة الرئاسة لعام 2004م، ناهيك عن حملة عام 2008م؛ أجل، سوف أظل محتجزةً طوال حملتين انتخابيتين.

بعد اتصالاتي بمكتب النائب العام ومكتب مكافحة الإرهاب، لم تعد الحكومة الأمريكية قادرة على النفي، فلو أنَّني أدليت بشهادتي أمام لجنة التحقيق في هجمات الحادي عشر من سبتمبر، أو أي لجنة تحقيق نيابية، لكانت وزارة العدل مضطرة إلى الإعلان بأنَّ بعض كبار موظفيها قد تلقوا تحذيرًا رسميًّا بخصوص هجمات الحادي عشر من سبتمبر، إلى جانب طلب مستعجل لتقديم المساعدة، عندما توافر متسع من الوقت لتنسيق خطة للرد، وإفشال تدمير البرجين.

حديثي لا ينتهي عند هذا الحد، فأنا على يقين بأنَّ معظم الأمريكيين سيُصدمون حين يعرفون أنَّ فريقنا كان على اقتناع في منتصف شهر أغسطس من عام 2001م، بأنَّ هجومًا على غرار هجمات الحادي عشر من سبتمبر كان وشيكًا، حتى إنَّني اتخذت إجراءات إضافية، وذهبت لزيارة ابن عمي آندرو كارد (كبير موظفي البيت الأبيض في إدارة بوش)، وطلبت إليه التدخل لدى وزارة العدل.

أوقفت سيارتي في الشارع خارج بيته في آرلينغتون بولاية فرجينيا، وانتظرت في سيارتي، ودخَّنت مدَّة ساعتين تقريبًا (أقلعت عن التدخين عام 2004م). كنت أرى الجيران يُطلُّون من نوافذهم، ويُحدِّقون فيَّ، وفي أثناء ذلك فكَّرت فيما سأقوله للشرطة، أو البوليس السري، إذا جاؤوا لمعرفة سبب وقوف هذه السيارة الغريبة خارج بيت كبير موظفي البيت الأبيض.

لسوء الطالع، فإنَّ آندرو لم يعد إلى البيت عصر ذلك اليوم، فتركت المكان من دون أن أنقل إليه مخاوفي. وأتذكَّر أنَّني سألت نفسي وأنا في طريق العودة إلى بيتي عما إذا كنت على وشك الوقوع في أكبر خطأ في حياتي، وهذا أحد الأشياء القليلة التي ندمت عليها طوال حياتي.

ربما تُفضِّلون سماع الرواية الرسمية التي تقول إنَّه لم يكن لدى أحد في الاستخبارات الأمريكية أدنى فكرة عن مؤامرة الحادي عشر من سبتمبر.

هل يرضيكم ذلك؟ يعني هذا الاتهام أنَّ أقوى أجهزة الاستخبارات في العالم، الذي يمتلك تكنولوجيا متقدمة، كان عاجزًا عن توقع هجوم الحادي عشر من سبتمبر، هل هذا ما تظنون؟

يؤسفني إن كنت سأُخيِّب ظنكم، فما تظنونه غير معقول، وغير صحيح، لقد كنا نعرف أنَّ مؤامرةً ما كانت تُحاك تفاصيلها، وهي في مرحلة الإعداد، كانت وكالة الاستخبارات الأمريكية تعرف، ووزارة العدل تعرف، ومكتب مكافحة الإرهاب يعرف، وأنا أعرف ذلك بكل تأكيد؛ لأنَّني أنا التي أبلغتهم بذلك، وقد اعتقلوني لمنعي من إبلاغكم بذلك.

الشيء الذي لم أكن أعرفه للأسف، هو أنَّ جهة أخرى من الاستخبارات كانت تعمل ضدنا بشراسة، فقد كشف لي مصدر موثوق هذه المعلومة بعد إرسال هذا الكتاب إلى المطبعة.

في ساعة متأخرة من ليلة 23 أغسطس 2001م، وفي الساعة الثالثة بعد منتصف الليل تقريبًا، التقطت كاميرات المراقبة في مرآب مركز التجارة العالمي وصول ثلاث شاحنات، وأظهر فحص الصور أنَّ هذه الشاحنات كانت مختلفةً عن شاحنات الخدمات، بما في ذلك اللون، وأنَّها لا تحمل أي علامات، والغريب في الأمر أنَّ شاحنات الخدمات غادرت محيط البرجين الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل؛ أي قبل نحو نصف ساعة من وصول مجموعة الشاحنات الثانية.

وبحسب المصدر الذي شاهد أشرطة التسجيل المصورة، فلم يسبق لشاحنات بهذا الوصف أن دخلت مركز التجارة العالمي في تلك الساعة الاستثنائية، في أي من الأسابيع أو الأشهر التي سبقت يوم الثالث والعشرين من شهر أغسطس، لقد كان ذلك حدثًا فريدًا.

صورت آلات المراقبة هذه الشاحنات وهي تغادر البرجين عند الساعة الخامسة صباحًا تقريبًا، قبل وصول الموجة الأُولى من أساطين (الوول ستريت) لمتابعة الأسواق الآسيوية.

وطوال الليالي العشر اللاحقة ظلت هذه الشاحنات المجهولة تأتي إلى مركز التجارة العالمي في تلك الساعة تحديدًا، بعد مغادرة عمال الخدمات للمبنى، وقبل مباشرة معظم أساطين سوق (الوول ستريت) عملهم اليومي، وقد استمر الحال هكذا حتى اليوم الثالث أو الرابع من شهر سبتمبر عام 2001م، ولم تعد هذه الشاحنات إلى المكان مرَّةً أخرى بعد ذلك.

لم يُعرف مصير هذه الشاحنات أيضًا، ولم تُبلغ لجنة التحقيق بظهورها المشبوه قبل ثلاثة أسابيع من هجوم الحادي عشر من سبتمبر؛ والذي لا يعرفه الجمهور حقًّا هو أنَّ أفلام آلات المراقبة قد اختفت أيضًا، كان مصدري هذا على اقتناع تام بأنَّ هذه الشاحنات نقلت متفجرات إلى داخل البرجين؛ ليتمكن بعدها فريق مجهول من تفخيخ مركز التجارة العالمي بطريقة مسيطر عليها، وقد التزم هذا المصدر الصمت للحفاظ على وظيفته وتعويض تقاعده وسمعته؛ لمعرفته أنَّ الذين تجرؤا على الحديث طُردوا من وظائفهم أو سُجنوا مثلي.

ومع عدم معرفتي بوجود هذه الأفلام، فقد كان لديَّ الكثير لأظل غاضبةً في ذلك القفص بانتظار وصول قاضٍ فيدرالي للموافقة على إخلاء سبيلي بكفالة، ومنذ اللحظة التي أُغلق فيها باب ذلك القفص خلفي، أدركت أنَّ اعتقالي كان جزءًا من عملية التستر على مؤامرة الحادي

عشـر من سـبتمبر. ربما استطاعوا أن ينتصروا على الحقيقة، لكنَّ هذا الانتصار كان ناقصًا؛ لأنَّ وزارة العدل وقعت في ورطة غير متوقعة؛

فبعد اعتقالي مباشرةً اكتشف مكتب التحقيقات الفيدرالي أنَّ وكالة الاستخبارات الأمريكية لم تكـن الجهـة الوحيـدة المطلعـة على تحذيراتنـا؛ فقد سـبق لي أن أبلغت بعض أصدقائي من المدنيين باحتمال وقوع هجوم على شـاكلة هجوم الحادي عشـر من سـبتمبر، خاصةً الأصدقاء الذين كانت لهم علاقات عائلية أو مهنية في مدينة نيويورك، وهذا ما أوقع الشرطة الفيدرالية في ورطة.

## تحذير شخصي لصديق

كان الدكتور بارك غادفري أحد أصدقائي المقربين في ولاية ميريلاند، وكان يعمل على إنهاء أطروحة دكتوراه في علوم الحاسـوب بجامعة الولاية، كانت عائلته تعيش في ضواحي كونيتيكت بمدينة نيويورك، كنا نلتقي مرَّتين أسبوعيًّا، ونتبادل آراءنا السياسية المشتركة [52].

غادر غادفري - بعد تخرجه في الجامعة- إلى كندا للعمل أستاذًا لعلوم الحاسوب في جامعة نيويورك بتورنتو، وكان من النوع الذي يهتم باختيار كلماته بحذر شديد.

وفي أثناء جلسـات الاسـتجواب الشاقة في المحكمة، كان يتوقف من حين إلى آخر ليعطي ردًّا دقيقًا، لقد كان شاهدًا رائعًا بالمقاييس كلها.

أبلغ غادفري - في شهادته- المحكمة أنَّني قد حذَّرته مرَّاتٍ عدَّةً في الربيع والصيف الفائتين مـن عـام 2001م أنَّنا نتوقـع هجومًا إرهابيًّا كبيرًا يسـتهدف مركز التجارة العالمـي، وقال إنَّني قلت له إنَّ «هجومًا كبيرًا سـوف يسـتهدف الجزء الجنوبي من مانهاتن، وسـوف تُسـتخدَم فيه الطائرات، وربما سـلاح نووي» [53]. دوعند اسـتجوابه كان أكثر تحديدًا؛ إذ قال إنَّني حذَّرته في أغسطس من أنَّ الهجوم كان (وشيكًا) [54].

والأكثر من ذلك أنَّ غادفري شهد - في أثناء القسم- أنَّه أبلغ مكتب التحقيقات الفيدرالي بالتحذيـرات الخاصـة بالهجـوم، كان ذلك بعد أشـهر قليلة مـن اعتقالي، وقبـل إصدار تقرير

لجنـة التحقيقـات في هجمـات الحادي عشـر من سـبتمبر، لم يكن الوقت قد فـات عندما أدلى بشهادته ليتحرك أعضاء لجنة التحقيق للتحقق من هذه التحذيرات [55].

حضر مقابلة غادفري مع مكتب التحقيقات الفيدرالي مندوب عن شـرطة الفرسـان الملكية الكندية، وحين سُـئل عن سـبب حضور هذا المندوب، رد غادفري بابتسامة: «إنَّهم هنا ليضمنوا حمايتي».

لسـوء طالعـي أنَّ أحـدًا لم يـأتِ ليضمن حمايتي؛ ذلـك أنَّني كنت أعرف الكثـير، وقد بدأت أتكلم؛ ولهذا كنت أقبع في قفص الحجز بانتظار الانتهاء من إجراءات كفالتي.

لقـد جـاء اعتقـالي في أعقاب اتصـالي بمكتب السـيناتور لوت ومكتب السـيناتور ماكين [56]، طالبًا الكشف عن ملابسات المؤامرة من الألف إلى الياء.

كانـت وكالـة الاسـتخبارات الأمريكية تعرف مـاذا يعني ذلك عندما أطلق صفـارة الإنذار، وفضـح تفاصيـل هذه اللعبة كلهـا؛ فقد كنت ضابـط اتصال أعمل لصالحهم، وكانوا يشـرفون على نشاطي سنوات عدَّة، وكانوا على اطلاع بطريقة عملي، وما يمكن أن أكشفه.

كانوا يعرفون أيضًا أنَّ الحقائق التي سأكشـفها سـتكون متناقضةً مع ما يحاول الكونغرس والبيت الأبيض بيعه للشعب الأمريكي، وربما الأهم من ذلك أنَّهم أدركوا أنَّني قررت أن أتكلم، وأنَّه يستحيل إسكاتي، وأنَّني لن أعدم طريقةً لأقول الحقيقة، فهذه هي طبيعتي.

والشـيء الوحيـد الـذي يضمن سـكوتي هـو (الإنهاء مع التحامل الشـديد)؛ وهـو المصطلح المستخدم في تدمير أي ضابط اتصال أو ضابط استخبارات، جسدًا وروحًا، مثل الاغتيال.

وأنـا في ذلـك القفص، لم تكن لـديَّ أي فكرة بعدُ إلى أي مدى سـيكون عمـل الإقصاء هذا قاسيًا، لقد بدأت حرب الاستخبارات للتو، ويمكن أن تُفضي إلى صراع حتى الموت.